

الفصل السادس

عجائب السماء

كمال القدرة في خلق العالم:

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة، وأدلة للمتقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر، والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له وضروب، النبات مهياً للمأربه وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه، فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات، ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم، وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره.

ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين، بل الإله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وإنه لو كان في السماوات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما، وتعطلت مصالحهما، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث فكيف يمكن أن يكون المدبر لهذا العالم العلوي، والسفلي إلهين متكافئين متساويين هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر، ف ﴿لَوْ كَانَ

فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢﴾، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿الْمُؤَنَّنُونَ: ٩١-٩٢﴾.

فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدرح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمنناه السر العجيب والبرهان الباهر^(١).

والنظر في هذه الايات وأمثالها نوعان:

الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر.

الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة^(٢) ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير^(٣) والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك

(١) مفتاح دار السعادة [٣١٩].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (١١٤/١) وصححه الألباني برقم [١٠٩].

(٣) من المعلوم أن مسكن الملائكة في السماء قال تعالى: ﴿إِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ، بِأَلْسِنٍ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٨]، وهم لا ينقطعون قط عن عبادة الله وتمجيده وتعظيمه ويحج منهم كل يوم سبعون ألف ملك وحجتهم إلى كعبة في السماء السابعة تسمى «البيت المعمور» ومن حج منهم مرة لا يعود إليه بعد ذلك، يأتي كل يوم سبعون آخرون وهذا يدل على أن الملائكة لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم جل جلاله قال رسول الله ﷺ «ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» [رواه البخاري برقم ٣٢٠٧، ومسلم برقم ١٦٢] وقال الله تعالى في وصفهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [الْجِن: ٦]، فسبحان من سبّحت بحمده كل الكائنات وذلت بالعبودية له كل المخلوقات.

والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كبير وإغناء فقير وشفاء مريض، وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم، وهداية حيران وتعليم جاهل، ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة ملهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان.

فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ولا تغلظه كثرة المسائل والحوادث على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد.

فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه.

فياله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة، وغنيمه العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب^(١).

عجائب خلق السماء

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها وعلاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدره الله الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

(١) رواه البخاري برقم [١٨٠٤]، ومسلم برقم [١٩٢٧].

ثم تأمل استواءها واعتدالها، فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت^(١) ولا عوج.

ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد.

وقال الأطباء إن من كلِّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجابة^(٢) خضراء مملوءة ماء.

فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك^(٣).

ثم تأمل الممسك للسموات والأرض الحافظ لهما، أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ومن القيم بأمره؟ ومن المقيم له؟، فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحها؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان؟، فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس، فجعل عليهم الليل سرمداً من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار، ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها، فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل؟ ولو أن السماء والأرض زالتا، فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده^(٤)؟

(١) الأمت الضعف والوهن.

(٢) هي: الإناء.

(٣) السابق [٣٢٠].

(٤) السابق [٣٣١].

تأملات في الفلك الدوار

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب، والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار، والفصول والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات، وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم. ولهذا خاطب الرسل أمهم مخاطبة مَنْ لا شك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به.

ف قالت لهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠]، فوجده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجدوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُونًا وَعَيْرٌ صُنُونًا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الشورى: ١٩٠]، وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أُنَزَّلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ٤-٦].

قَالَ تَجَالِي: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [التَّحْكَمَانِ: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النَّحْلُ: ٤-٥]، إلى قوله: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النَّحْلُ: ١٧].

وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ يُبْدِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ ﴾ [النَّحْلُ: ١٠-١١]، وختمها بأصحاب الفكرة (١).

فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة، فهذا نوع واحد من آياته.

وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر، فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه. وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرَّحْمَآةُ: ٤]، فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها، فإن إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة، ثم

ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح، فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرى.

ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى، وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى، وفي النجوم آيات أخر كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر.

فالموضع موضع جمع، وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر والأولى كالباب لهذه، فمن استدل بهذه الآيات وأعطاهما حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر، فلما دهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمل.

فأما قوله في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الحج: ١٣]، فوحد الآية وخصها بأهل التذكر.

فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء فإن ما ذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل واحد، فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه.

وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر، فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبَصُّرَةً وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨]، فالتبصرة التعقل والتذكيرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله، فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر، فجاء التذكير في الآية

لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وآخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل^(١).

الحكمة في خلق النجوم وكثرتها؛

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدي بها في طرق البر والبحر، وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط، ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت.

ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه أن لا تخرج عنه، فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر، ومنها ما يخفى على الناظر، فلا يدركه.

وجعل منطقة البروج قسمين: مرتفعة ومنخفضة، وقدر سيرها تقديرًا واحدًا، ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها، فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية.

وجعل ذلك أسبابًا لما يحدثه سبحانه في هذا العالم، فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات.

ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش^(٢) وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز ولما في ذلك من الحكمة الإلهية وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في

(١) السابق [٣٢٨-٣٢٩].

(٢) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي.

الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها وإلى الجدي والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤوا^(١).

العجائب في خلق الشمس والقمر:

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور.

ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجوم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا - مع تضادهما - متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم^(٢).

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [التَّحْصُلُ: ٧١-٧٢].

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه.

(١) السابق [٣٢٥-٣٢٦].

(٢) السابق [٣٢٠-٣٢١].

وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر. والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الْفَرَّاقَان: ٦١-٦٢].

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفه أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه، فيطلبه حيثًا حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبها، فيطلبه حيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه^(١).

مسير الشمس في فلكها:

ثم انظر إلى مسار الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار، ولا المواقيت ولا طبق الظلام على العالم أو الضياء، ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة، وكيف قدر لها السميع العليم سفيرين متباعدين أحدهما: سفرها صاعدة إلى أوجها، والثاني: سفرها هابطة إلى حضيضها.

تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه، فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول، من الصيف، والشتاء، والخريف، والربيع، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء، برد الهواء، وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء، اشتد القيظ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان، وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها^(١).

الحكمة في طلوع الشمس على العالم كله:

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء، فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يجلبها عن الجانب الآخر فكان يكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتتظم مصالحهم^(٢).

ارتفاع الشمس وانخفاضها:

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لاقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفات

(١) السابق [٣٠٦].

(٢) السابق [٣٢٣].

مصالح الفصول الباقية فيه، فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله.

ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطن الأرض والجبال، فتتولد مواد الشار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكثف فيه الهواء، فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان.

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل.

وفي الصيف يحد الهواء ويسخن جداً، فتنضج الشار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاق التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة، لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء؛ لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد، فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا انتقل إليه بتدريج وترتب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة.

وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين^(١).

القمران وما فيهما من الإضاءة والنور:

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أُودِعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون، والإجارات، والمعاملات، والعدد، وغير ذلك، فلولا حلولك الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك.

وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

قَالَ الْعَجَلِيُّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الأنعام: ١٢] (١).

إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل:

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك. فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا (٢) لا ضوء فيه أصلاً، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال.

(١) السابق [٣٢٣].

(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهياً له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار - كحال كثير من الحيوان - جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة، كالسفر، والحراث، وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوي الليل والنهار، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم.

فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها مظلمة صرفاً، بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحساناً، فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه^(١).

القمر وعجائب آياته؛

وانظر إلى القمر وعجائب آياته كيف يبيده الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى إبداره^(٢) وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم، وعبادتهم، ومناسكهم، فتميزت به الأشهر والسنون، وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله.

«وبالجملة فما من كوكب من الكواكب» إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه.

(١) السابق [٣٢٤-٣٢٥].

(٢) أي صيروته بدراً.

وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال، فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها، ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأي نسبة لذلك إلى عظم السماوات وكواكبها وآياتها.

وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفاً وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها.

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي: «أن بين الأرض والسما مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك»^(١) وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات، وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل عنه وعن آياته.

وقال بعضهم: إذا تلفظت بقولك: لا، نعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام.

ثم إنه سبحانه أمسك السماوات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ [لقمان: ١٠-١١].^(٢)

(١) رواه الترمذي برقم [٢٥٤٠]، مرفوعاً بسند ضعيف والصحيح فيه أنه موقوف من قول ابن مسعود، رواه ابن خزيمة في التوحيد [١٤٩]، والبيهقي في الأسماء والصفات ص [١٠٤] وصححه ابن القيم في اجتاع الجيوش الإسلامية ص [١٢٢]، ومختصر الصواعق (٢/٣٧٣).

(٢) السابق [٣٠٦-٣٠٧].

عجائب الليل والنهار وما فيها من الأسرار

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبيده كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فُطِّلَتْ: ٣٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الْقُرْآن: ٤٧]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٣٣]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غَافِر: ٦١]، وهذا في القرآن.

فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنته من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغطي العالم، فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها وتصرفها جاء فالق الأصباح - سبحانه وتعالى - بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم، فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها.

فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية، وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرها لمن هو واقف في الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء.

وبهذا وأمثاله يعرف الله عَزَّ وَجَلَّ ويشكر ويحمد ويُتضرع إليه ويسأل^(١).

الحكمة في مقادير الليل والنهار:

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكياها أربعة وعشرين ساعة وجعلها يتعارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخرة، فيسترده منه قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فَاطَةُ: ١٣]، وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة^(٢).

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات.

وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفراط برده وبيسه.

وكل موضع لا تفارقه كذلك لفراط حره وبيسه.

(١) السابق [٣١٤].

(٢) السابق [٣٢٤].

والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعد لها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفيين وربيعيين.

العجائب في اختلاف مسيرة الكواكب:

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته لا يفرد عنهم سيره أبداً، بل لا يسرون إلا جميعاً وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيد برفيق ولا صاحب، بل إذا اتفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى، فبينما تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف؛ سير عام يسير بها، فلکها، وسير خاص تسير هي في فلکها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحي ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين، فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين أحدهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعاً للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها، وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلکها وبمنزلتها إلى جهة الغرب. فسل الزنادقة والمعطلة أي طبيعة اقتضت هذا؟ وأي فلک أوجبه وهلا كانت كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومتبذعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء؟! أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الإعراف: ٥٤].

فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتباً^(١) وبعضها منتقلاً.

قيل: إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المنتقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ولتشبث المعطل بذلك، وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختاراً لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته^(٢).



(١) الراتب هو الثابت يقال رتب رتوباً: ثبت واستقر.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٣٢٦-٣٢٧).